انتشار الإسلام في الصومال

الأستاذ يوسف عابد

جامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة

عرف الصومال الإسلام في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث تذهب بعض الروايات إلى أن جعفر بن أبي طالب أثناء هجرته من مكة إلى الحبشة أسس مراكز للدعوة الإسلامية في الصومال وهذا بمساعدة الوحدات السكنية العربية المستوطنة هناك. ويهمنا في هذه المسألة أن الصوماليين صاروا من المناصرين لدعاة الإسلام هناك، وازداد إقبال الصوماليين على اعتناق الدين الإسلامي مع انتشار الإسلام وتأسس قواعد الدولة الإسلامية وانتظمت هجرات واسعة من دعاة الإسلام قاصدة سواحل بلاد الصومال، وأسست مراكز عربية إسلامية ثابتة[1]، ثم توالت هجرات المسلمين إلى ساحل الصومال زمن الخلفاء الراشدين فهناك هجرة بعض المسلمين جاءت على إثر مقتل عثمان بن عفان لاختلاف المسلمين حول منصب الخلافة، فانقسم المسلمون إلى شيع في عهد علي بن أبي طالب، فهاجر بعضهم في فترة الاضطرابات التي سادت أثناء خلافة علي إلى ساحل الصومال، ومن المرجح أن يكونوا من الخوارج الذين حاربهم علي وهزمهم في موقعة النهروان[2].

وفي العصر الأموي هاجرت عدة فرق إلى ساحل الصومال من سوريا والعراق والجزيرة العربية وأسسوا دولة صغيرة بالقرب من لاهو، وقد حدث ذلك خلال خلافة عبد الملك بن مروان (65 هـ-85 هـ/685 م-705 م)، وكانت عوامل تلك الهجرات سياسية عندما قامت أخطر ثلاث حركات عصيان تناهض الخلافة الأموية في دمشق وهي حركة عبد الله بن الزبير، وحركة الخوارج، وحركة عبد الرحمن بن الأشعث الملقب بأسد

---

(1) حمدي السيد: الصومال قديما وحديثا، ص 394، القاهرة 1950.

(2) موقعة النهروان: سنة 38 هـ دارت بين علي بن أبي طالب والخوارج.

الغزات[1]. هذه الحركات استطاعت أن تشغل الخلافة الأموية عن الاستمرار في الفتوح الإسلامية على الجبهات الشرقية والغربية وكذلك في البحر[2].

وفي زمن عبد الملك كذلك كانت هجرة سليمان وسعيد التي تواترت الروايات التاريخية بشأنها، وقد تزعمها شيخان عربيان من عمان ينتميان إلى قبيلة الأزد[3] ومن الثابت أن هذه الهجرة تحركت من عمان خلال الفترة من (75 هـ، 95 هـ/694 م-704 م) بقيادة سليمان وسعيد ابني عباد الجلندي من قبيلة الأزد وهما من شيوخ العرب الذين حكموا عمان في أيام الدولة الأموية، وثاروا في وجه الخليفة عبد الملك الذي اشتد في تنفيذ سياسة عنصرية- حسب زعمهم- ويهمنا أن أفراد هذه القبيلة الذين طاب لهم المقام في ساحل الصومال قد ساهموا إيجابيا بنقل الثقافة الإسلامية إلى تلك الجهة، ولعبوا دورا فعالا في نشر الدعوة الإسلامية بين القبائل الصومالية[4].

وفي أواخر أيام الدولة الأموية كانت هجرة "الزيدية" عقب مقتل زيد بن علي عام 122 هـ/740 م فرارا من اضطهاد بني أمية لهم، واتبعت هذه الجماعة تعاليم زيد حفيد الرسول -ص- ولذا عرفوا بالزيدية، وهاجرت هذه الجماعة إلى الساحل الصومالي واستقروا بمنطقة بنادر (ساحل بنادر) حيث ساد الشيعة لما يقرب من مائتي سنة، وأصلحوا الأراضي القاحلة وزرعوها واستفادوا من مياه نهري جوبا وشبيلي وأراضيها الخصبة، واستطاعوا بمساعدة الرقيق زراعة بعض النباتات التي عادت عليهم بثروات طائلة، ودرت عليهم أموالا هائلة، وقد احتفظوا بنقائهم فترة من الزمن، وهذا لسببين:

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 160، 190.

(2) الطبري: السابق، نفس الجزء، ص 163.

(3) المسعودي: مروج الذهب، ص 101.

(4) Reusch, R, History of East Africa, P 74, New-York 1961.

1- أن الوافدين كانوا قد أحضروا معهم عددا من النساء والفتيات العربيات ومن ناحية أخرى أن الزيدية كانوا لا يريدون الاختلاط والزواج من أي عنصر آخر لذلك فقد انتشرت الزيدية في ساحل بنادر فقط.

2- لم يختلط الزيديون إلا بعد فترة طويلة من الزمن عندما تدفق الوافدون فاضطر الزيدية إلى الزواج من الوطنيات واختلطوا لهذا السبب مع قبائل البانتو Panto.

وحتى يومنا هذا توجد قبيلة عربية في بنادر "BANADR" بالصومال تفخر بنسبتها إلى الزيدية وتدعي الانتماء إلى النازحين الأوائل منهم[1].

كذلك من الهجرات الهامة إلى ساحل الصومال هجرة الاخوة السبعة التي تحركت إلى هناك في بداية القرن العاشر في حوالي 301 هـ (319 م) من الإحساء عاصمة دولة القرامطة الذين نشروا الرعب في أنحاء الجزيرة وسوريا والعراق، وقد هاجر الاخوة السبعة وجماعتهم إلى الصومال فرارا من أعمال القرامطة الوحشية ضد المسلمين في كل مكان، واصطدم الاخوة السبعة الشافعية بالزيدية، وهزموهم وأحرقوا لهم منازلهم فاضطر الزيدية للاندماج والانصهار مع السكان الأصليين، فتزوج العرب الزيدية منهم، وتطبعوا بطبائعهم، ونشروا بينهم الدين الإسلامي، حتى أن الكثير من قبائل الجالا[2] اعتنقت الإسلام على أيدي الزيدية بدليل أن كثيرا من الصوماليين في الداخل قد أصبحوا فقهاء[3].

(1) حمدي السيد: الصومال قديما وحديثا، ص 350.

(2) قبائل الجالا: من أكبر القبائل الصومالية.

(3) حمدي السعيد: السابق، ص 124.

أما الاخوة السبعة الذين استولوا على ساحل بنادر فقد تمكنوا من تكوين دولة قوية عاصمتها مقديشو[1] التي قاموا بتأسيسها، فامتد نفوذهم حتى جنوبي ممبسة، وربما وصلوا إلى جزيرة مدغشقر، ولم تمض فترة طويلة حتى أصبح كل الساحل شافعيا على المذهب السني[2]، وفي عام 975 م وصلت أهم الهجرات الإسلامية إلى ساحل شرقي أفريقيا، وهي هجرة آل شيراز الفارسي بقيادة زعيمهم علي بن حسن الشيرازي الذي تمكن من الاستيلاء على كل ساحل شرقي أفريقيا من مقديشو شمالا حتى سوفالا (في روديسا حاليا) جنوبا، وأصبحت كل الإمارات العربية الإسلامية تخضع لسلطان الشيرازيين الذين تمكنوا من تأسيس أشهر سلطنة إسلامية في ساحل شرقي إفريقيا عُرفت في التاريخ باسم «إمبراطورية الزنج الإسلامية» أو «سلطنة كلوة الإسلامية» نسبة لعاصمتها كلوة- Kilwa –[3].

والشيرازيون الفرس هم أمراء بني بويه الذين سيطروا على الخلافة العباسية في عصرها الثاني ردحا من الزمن، واحتلوا المناصب الكبيرة في الدولة كالجيش والقضاء وسلبوا الخلفاء سلطتهم وهيبتهم وأصبحوا أصحاب الأمر والنهي حتى ضاق بهم الناس وتبرءوا من أعمالهم، لذلك اضطر أحد الخلفاء العباسيين «القاهر بالله» الاستعانة بقوة جديدة هي قوة أمير الأمراء ثم قوة السلاجقة من بعدهم، فتمكنوا من طرد بني بويه من بغداد[4].

واستمر الشيرازيون الفرس يحكمون في ساحل شرقي أفريقية قرابة الأربعة قرون من عام 795 م حتى مجيء البرتغاليين عام 1497 م بقيادة فاسكودي جاما فزالت دولة آل شيراز

---

(1) أطلق الأوربيون الرحالة أسماء مختلفة عن مقديشو منها موجوديشو Mougidishu وموجودسكو Mougoudiskua. ومقديسكو Makadisshsu. انظر: أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 287، القاهرة 1947.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج 6، ص 69.

(3) أرلوند: السابق، ص 249.

(4) Rush, op, cit, P 102

الفرس باستيلاء البرتغاليين على معظم أجزاء ساحل أفريقيا الشرقي[1]، ويجب التركيز على أن تعلم اللغة العربية وانتشار الإسلام قد استمر منذ أن تأسست المدن والمراكز الإسلامية في هذه السواحل ومنذ الوهلة الأولى التي ثبت فيها المسلمون نفوذهم في هذه البلاد، فقد قامت المدن العربية بجهود مضنية في نشر الإسلام، كجهود مقديشو في نشر الإسلام من قبائل الجالا الوثنية ومثل جهود أمراء براوة ومالندي وبيت Bate في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية كقبائل شانقا والبانتو والبوشمن وغيرها، ومن المدهش أنه كان من نتائج حملات البرتغاليين الوحشية أن ازداد انتشار الإسلام، ذلك لأن المسلمين تركوا الساحل أمام تزايد نيران المعتدين، ولجأوا إلى الداخل حيث اختلطوا بالقبائل الداخلية ونشروا الإسلام بينها وأصبح أهلها مسلمين.

وكانت القبائل العربية التي هاجرت إلى الصومال وأثيوبيا تحمل معها دينها ولغتها وكانوا يختلطون بالسكان وينتقلون إلى لغات هذه الكثير من كلماتهم خصوصا ما كان منها متعلقا بأمور الدين، وقد ظلت اللغة العربية هي لغة التسجيل والتدوين والمراسلات في العهود والاتفاقيات وغير ذلك سواء في الساحل أو مع الدول الخارجية ومنذ فجر التاريخ والقلم العربي هو القلم المعروف في الساحل دون غيره، والمعروف أن أسس الثقافة هي طريقة التعبير، أي أن اللغة العربية اختلطت بلهجات البانتو عشرات القرون، وتولد عنها لغة جديدة هي اللغة السواحلية، كما أصبح الدين الإسلامي أساس التشريع والقضاء ومصدر القيم الروحية.

وحظيت علوم الدين بنصيب وافر من العناية والخدمة في الصومال وأثيوبيا وقد عنا أهلها بكتاب الله حفظا وتجويدا وتفسيرا، فقد كان حظهم من هذه العلوم كبيرا كما كان نصيب اللغة العربية جزيلا وافرا وازدهرت العربية وعلومها على أيديهم، وتركت أثرها القوي في الساحل الصومالي وخاصة حول لامو Lamo[2] وصارت مدينة براوة

---

(1) Duffy, J, Português Afrique, P 26.
(2) Reusch, Ibid, p75.

Braoua[1] بالقرب من مقديشو كجزيرة عربية كعبة المعرفة، يأتي إليها طلاب العلم من الأماكن النائية لشهرة علمائها وتفوقهم في الدين وقد حملت مساجدها أسماء الخلفاء عمر وعثمان وعلي، وانتشر بها شيوخ الصوفية ومنها القادرية والإدريسية والزيلعية والأحمدية[2]، ومن ثم اعتبرت براوة كعبة المعرفة وأصبح بها أكثر من خمسة وعشرين مسجدا عدا الزوايا[3].

ونفخ المسلمون في سكان الصومال حب الأدب وفنون الشعر حتى تخرج منهم شعراء وخطباء مفوهون، وأصبح لهم أدبا معروفين به، وبرز كثير من العلماء والشعراء والأدباء باللسان العربي كالفقيه البليغ فخر الدين أبي عثمان بن علي محمد البارعي الزيلعي الذي قدم القاهرة من مقديشو في القرن الرابع عشر، ونشر الفقه فيها ومات بها، وله كتاب سماه «شرح كتر الوثائق» ومن المؤرخين الصوماليين باللسان العربي شهاب الدين الملقب بفقيه العرب وله كتاب (فتوح الحبشة)[4].

أما عن اشهر دعاة الإسلام في الصومال خلال فترة العصور الوسطى حتى نهاية القرن التاسع عشر فنذكر منهم على سبيل المثال، الشيخ أبادير التي تذكر عنه مصادر مقديشو أنه جاء من الجزيرة العربية في خلال القرن الرابع الهجري ـــ العاشر الميلادي ـــ واستقر في مملكة عدل (زيلع) ثم دخل هرر التي أصبحت بفضل جهوده قاعدة إسلامية لنشر الدعوة في الصومال وأثيوبيا، ويذكر ابن حوقل أن أهالي زيلع كانوا مسيحيين في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي ولكن أبا الفداء يذكر أنهم كانوا مسلمين في القرن الرابع عشر، وقد

---

(1) براوة: هي إمارة عربية خضعت لحكم الإخوة السبعة عام 913م وهي بالغرب من مقديشو.

(2) حمدي السيد: المرجع السابق، ص346.

(3) حمدي السيد: نفسه، ص326.

(4) زاهر رياض: الإسلام في أثيوبيا، ص90، القاهرة 1964.

يكون هذا التحول إلى الإسلام بفضل الشيخ أبادير الذي بشّر بالإسلام ودعا إليه زيلع في القرن العاشر[1].

ومن دعاة الإسلام كذلك أربعة وأربعون شيخا وفدوا من حضرموت إلى الصومال لنشر الدعوة الإسلامية نزلوا في مدينة بربرة على ساحل الصومال الشمالي واستقروا بها فترة قصيرة ثم انتشروا في البلاد، واستطاع أحدهم وهو الشيخ الوقور إبراهيم أبو زرباي أن يسلك طريقة إلى مدينة هرر حوالي عام 1430م حيث قام بنشر الدعوة وإنشاء المساجد، ومازال قبره معظّما في المدينة.

وأما أشهر الدعاة الصوماليين وأبرزهم، فهو المجاهد الكبير أحمد بن إبراهيم الجران أو أحمد بن جرّا الملقب بالأشول أو الأعسر، الذي ظهر في القرن السادس عشر وأحدث تحولا كبيرا في نشر الدعوة الإسلامية واتسم جهاده بالبطولة والفدائية، فقد قام هذا المجاهد الكبير بتحرير الأراضي الصومالية من نفوذ النصارى والأحباش، وجعل من مدينة هرر قاعدة ليبدأ منها الجهاد في سبيل الله، وبذل أحمد بن جرّا جهودا جبارة من أجل توحيد الجبهة الإسلامية والقيام بغزوات على التجمعات المسيحية والمقاطعات الحبشية، التي تقوم بغزو أراضي المسلمين في الصومال بزعامة بطارقتها، بل استطاع الصوماليون بقيادة هذا المجاهد الكبير أن يصلوا إلى أبواب العاصمة الحبشية، بل وتمكنوا بقيادته أن يضموا بلادا جديدة داخل الحبشة المسيحية دخلت في الإسلام وتحمست له[2]. لذلك يعتبر أحمد بن جرا علمًا من أعلام المسلمين في بلاد أفريقية الشرقية ومجاهدا كبيرا في نشر الدعوة والثقافة الإسلامية[3].

(1) حمدي السيد : المرجع السابق، ص353.

(2) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار، ج2، ص73، القاهرة، 1322هـ.

(3) زاهر رياض: الإسلام في أثيوبيا، ص98.

استمر الدعاة يتدفقون على بلاد الصومال، ففي عام 1830م وفدت جماعات من الوهابيين النجديين من الجزيرة العربية واستقروا في بلدة بارديرا، وقاموا بتنظيم دعاية قوية كان لها النجاح في حالات كثيرة إلى الإسلام.

ومن المجاهدين والدعاة المسلمين نذكر أيضا المجاهد والداعية محمد عبد الله بن حسن وهو من المجاهدين الصوماليين الذين ظهروا خلال القرن التاسع عشر، وحارب المبشرين ودعا إلى الكفاح المقدس تحت راية الإسلام ووحد كلمة المسلمين في الجهاد وبالطبع يضاف إلى هذه الأدوار دور الطرق الصوفية التي قامت بنشر الدعوة الإسلامية، وتفسير تعاليم الإسلام بالإضافة إلى محاربة البدع، والعمل على جعل المسلمين أخوة متحابين في الله.

توالت الهجرات الإسلامية ودعاة الإسلام في العصر الحديث ومن آثارهم أن كثيرا من الصوماليين والأثيوبيين خرجوا لطلب العلم فطلبوا العلوم الدينية في المدينة ومكة والقيروان وفاس وطرابلس والقاهرة وصنعاء وإذا ما تحصلوا على علومهم ومعارفهم في أحوال المسلمين وتعاليم الإسلام، عادوا إلى بلادهم كدعاة الإسلام، وعلى ذلك ازدهرت بهم مراكز الثقافة الإسلامية في هذه البلاد الإفريقية، ونهضت بدور فعّال في نشر الثقافة والدعوة الإسلامية ولذلك لابد أن تتطور مراكز الدعوة الإسلامية مع مرور الزمن وأن تزداد الهجرات العربية الإسلامية من ناحية ويزداد نشاط الدعاة في الصومال وأثيوبيا من ناحية أخرى، فهو عمل مشترك بين القادم الداعي وبين المستقر الموجهة إليه الدعوة، فتحولت المدن الصغيرة إلى مدن زاهرة تمثل حلقة تمتد من مركز هرر ومقديشو فبرواة، فالإمارات الإسلامية السبع من دول الطراز الإسلامي، ويمكن معرفة مدى انتشار الإسلام وتلاقي هذه المراكز في توحيد الجبهة الصومالية الإسلامية حتى أصبحت الصومال دولة إسلامية خالصة، بالإضافة إلى المراكز الإسلامية الكبرى المشار إليها والتي نهضت بدور كبير في حمل الثقافة والتراث الإسلامي ونقله إلى جهات مختلفة في الساحل ثم إلى الداخل الأفريقي، ظهرت

مراكز إسلامية أخرى في كل من الصومال وأثيوبيا[1]، وأسهمت بدور كبير في الدعوة إلى الإسلام[2] ونشر الثقافة الإسلامية، ومن أهم هذه المراكز: حافون ووار شيخ وعظلة وكسمايو وبارديرا ولوخ وبيدوة وبربرة.

لذلك نستطيع القول أن هذه البلاد تمتعت بحضارة إسلامية راقية ونظام إسلامي للحكم سليم لأنها كانت قريبة من ينبوع الحضارة والثقافة وعلى صلة وثيقة بموطن أرقى الحضارات الإنسانية.

(1) ابن بطوطة، المرجع السابق، ص70.

(2) المقريزي: الإلمام بأخبار أرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص22، القاهرة، 1985.